تقدير الجمال

أسئلة تخطر على البال ، وليس من اليسير الجواب عنها ، مع أنها تدور فى أذهاننا كلما شاهدنا الأشياء الجميلة والآثار الفنية البديعة . ماذا نعنى بالجمال ؟ وهل يوجد ميزان أو موازين نرجع إليها فى تقدير الأشياء الجميلة ؟ وما الدور الذى يلعبه العقل أو الذوق فى تقدير الجمال ؟ وهل الجمال تعبير عن مكنونات النفوس ، أو صفة من صفات الأذهان والعقول ، أو أثر من آثار الخلق والابداع ؟

ولندع هذه الأسئلة التى تضرب فى الفلسفة إلى الصميم ، لنقف موقفا بسيطا يقفه كل إنسان عند ما يعجب بقصيدة من الشعر ، أو يطرب لنغمة موسيقية ، أو يتذوق أثراً من هذه الآثار الفنية فى الرسم والتصوير والنحت وما إلى ذلك . إنه يقول هذا جميل ، فما هو سر الجمال ، وما موضع الاعجاب ؟

إن قلت الجمال لذة الحواس كالبصر والسمع ، فليس الأمر كذلك ؛ لأن الجمال متعة تضاف إلى الحواس ، لا لذة تستمد منها . فانت تجد لذة فى تناول الطعام ، ومتعة فى النظر إلى المائدة الجميلة وقد نضدت بالزهور . والفرق بين هذا وذاك هو الفرق بين الحيوانية والانسانية . وفى ذلك يقول أبو نصر الفارابى فى الفصوص : « العمل الحيوانى جذب النافع ويقتضيه الشهوة ، ودفع الضار ويستدعيه الخوف ويتولاه الغضب . والعمل الانسانى اختيار الجميل . »

ولقد ذهب المحدثون من الفلاسفة ابتداء من كنت وهيجل إلى لالو وكروتشى وجيو مذاهب شتى فى تفسير الجمال ، وتعليل الاعجاب به ، وبسط الموازين لتقديره ، غير أن ديلاكروا لا يرضى عن أى مذهب من هذه المذاهب ، ويعد كل واحد منها ناقصا من وجه ، صحيحا من وجه آخر .

ثم يختم كلامه بأن الفن ليس « إحساساً ، أو صورة ، أو ائتلافا فى الأرواح ، أو حقيقة ، أو البصر بالمُثُل ، ولكنه كل ذلك ، حيث كان فيضا لقوة مبدعة مؤلفة » .

ويبدو أن مذهب أفلاطون قد أُهمل فى زوايا النسيان ، أو أدرج فى ذيل المذاهب ، مع أنه الفيلسوف على التحقيق ، وعنه أخذت الفلسفة الألمانية المثالية ، والعلم الحديث يأخذ بتفسيره الرياضى للكون ، بعد أن ظلت الحضارة الانسانية ترسف فى أغلال مادة أرسطو وصورته حول عشرين قرنا من الزمان فلم تتقدم .

ولعلنا إذا رجعنا إلى مذهب أفلاطون فى الجمال ، ثم أضفنا إليه شيئا من التعديل ، أن نكون أدنى إلى التفسير الصحيح .

يصف أفلاطون فى محاورة المأدبة رحلة النفس الانسانية فى طلب الجمال . وهنا نجد الالهة ديوتيما تدل سقراط على السبل التى ينبغى على الذين ينشدون معرفة « مثال الجمال » اتباعها . فالسبيل الأول أن يقدر المرء جمال شئ واحد جميل ، ثم يتدرج إلى مرحلة ثانية يقدر فيها جمال عدة أشياء ويلحظ ما بينها من مشاركة . والمرحلة الثالثة تقدير الجمال المعنوى ، الذى يخلو من علائق المادة ، كالجمال فى الأنظمة والنواميس .

وهذا كله لا يكفى فى بلوغ المثال ، أو على حد تعبير أفلاطون فى « البصر بالمثال » إذ لا بد من دراسة عميقة لفرع من فروع المعرفة اليقينية ، هى الرياضة بأقسامها : الحساب والهندسة والفلك . ولن يبلغ الفنان المثال بالذات إلا إذا امتلك ناصية العلم الرياضى . ومن المأثور عن أفلاطون أنه كتب على باب مدرسته « من لم يكن مهندساً فلا يدخل علينا » . ويرى الفارابى فى كتاب تحصيل السعادة ، أن أول أجناس الموجودات التى ينظر فيها الانسان علم الحساب والهندسة وما يلحق الأعداد والأعظام والأشكال من « خاصة التقدير ، وجودة الترتيب ، وإتقان التأليف ، وحسن النظام » .

كيف ينتقل الانسان من مشاهدة الأشياء الجميلة ، ودراسة الحساب والهندسة إلى البصر بالمثال ؟ هنا نجد أفلاطون يلبس مسوح المتصوفة

فيحدثنا بأن اشتغال النفس بالدرس والطلب يؤدى إلى مكافأتها باشراق نور المثال كما يندلع اللهب من النار . فالتحصيل شرط ، والبصر بالمثال إلهام .

وإذا رجعنا إلى نظريات المحدثين من علماء النفس وما حققوه فى كلامهم عن الابداع فى الفنون وجدنا بينهم وبين مذهب أفلاطون شبها كبيراً . وجملة ما يذكرونه أن الأثر الفنى ، إبداعاً كان أو تقديراً ، تجسيداً أو تفكيراً ، يمر فى أربع مراحل : الاعداد والحضانة ، والاشراق ، والتنفيذ أو التحقيق . والاعداد يشبه مرحلة الدرس والتحصيل عند أفلاطون . ويعزو علماء النفس إلى فترة الحضانة أهمية خاصة ؛ إذ أن الفكرة تنحدر من الشعور إلى اللاشعور ، وتظل كامنة ، ولكن العقل يصرفها ويقلبها دون وعى من صاحبها . ولهذا كانت أعظم أعمال العباقرة ما جاءت بعد فترة من الكسل ، أو الراحة بعد الكد والتعب . ثم تبرز الفكرة الجديدة ، أو صورة العمل الفنى ، أو هذا المثال الذى يحكى عنه أفلاطون ، وكأنه — كما يقول الفريد دى موسيه — « مجهول يهمس فى آذاننا » . وهكذا يحصل إلهام الفنان ، ووحى الشاعر ، واختراع العالم .

ويشبهون هذا الالهام أو الوحى بطفرة ينتقل فيها العقل بعد الاعداد والدرس الى الكشف ، وهى طفرة تستند إلى العلم السابق ، ولكنه لا يقتضيها بالضرورة . ولهذا يلجأ العلماء إلى التحقيق حتى يتثبتوا من هذا الكشف .

والخلاصة عند أفلاطون أن الجمال ، ابتكاراً كان أو تقديرا ، فهو نوع من الكشف عن مثال الجمال ، نصل إليه بالمعرفة ، ونهتدى إليه بطول الخبرة والممارسة . وبعد فان تقدير الجمال لا يرجع إلى الذوق والوجدان ، بل إلى « المعرفة » . فالجمال على ذلك موضوعى لا شخصى .

أى إن الميزان فى تقدير الأشياء الجميلة ميزان خارجى مستمد من طبيعة الأشياء نفسها ، فلا يقوم على هوى الشخص أو مزاجه .

فاذا كنتَ تريد أن تحكم بين أبى تمام والبحترى ، أو بين شوقى وحافظ ، أيهما أعلى شعراً وأصدق فنا ، فلا بد أن تكون على علم وثيق بالشعر وموازينه ، ثم لا يكفى أن تحفظ علم العروض ، بل ينبغى أن تمارس النظم حتى يصير

الشعر عندك ملكة أو عادة ، وعندئذ فقط تهتدى إلى « مثال الجمال » فى الشعر ، حتى إذا نظرت فى قصائد الشعراء ، ووجدت أنها تطابق هذا المثال الموجود فى ذهنك ، كانت جميلة ، وإذا وجدتها تبعد عن هذا المثال كانت قبيحة .

وفحوى هذا المذهب أنك لا تصلح حكما بين الشعراء إلا إذا كنت شاعراً ، ولا ناقداً لصورة زيتية إلا إذا كنتَ رساماً ، ولا بصيراً بالألحان إلا إذا كنت موسيقيا . ولهذا السبب يختصم الناس إلى النقاد والفنانين والخبراء . ومع ذلك فقلما تجد اتفاقاً بين النقاد على جمال شئ يحكمون فيه ، لا لأن المثال يعوزهم ، بل لأنهم قد يرجعون إلى الذوق والعاطفة.

أما الجانب الآخر فى مذاهب الجمال ، فهو الذى يعتمد فى التقدير على الشخص . وعلى رأس المتطرفين فى المذهب الشخصى تولستوى ، وله كتاب مشهور عنوانه « ما هو الفن ؟ » انتهى فيه إلى أن قيمة الأثر الفنى ، شعراً كان أو تصويراً أو لحنا أو تمثالا ، إنما يعتمد اعتماداً تاماً على تأثيره فى أشخاص الناظرين إليه . الفن فى رأى تولستوى هو نقل الانفعالات والعواطف . فالقصاص الذى يروى قصة ، والموسيقى الذى يؤلف لحنا ، والرسام الذى يخرج صورة ، إنما يرمون جميعا إلى تسجيل انفعالاتهم التى أحسوا بها ، ونقلها عن طريق هذه الآثار الفنية إلى الناس ؛ وهذا هو الفن : تأثر ، ثم تعبير ، ثم تأثير . وميزة الفنان أنه أقدر من غيره على التعبير . سئل أحدهم لماذا كان المتنبى أعظم الشعراء ؟ فأجاب : « لأنه يحكى عن خواطر الناس . »

وينبغى أن يرمى الأثر الفنى إلى الجمال فقط ، فاذا جمع بين الجمال واللذة لم يكن فنا ساميا . فاذا أخذنا بمذهب تولستوى وأردنا أن ننصب الميزان للحكم على لحن أو قصيدة أو صورة ، فعلينا أن نعرضها على الناس ، ثم نعد كم شخصاً أعجبوا ، واهتزوا ، وتأثروا . ذلك لأن الجمال ليس موضوعيا أومستمدا من طبيعة الآثار الفنية ، بل الجمال صفة للتأثير الحادث فى نفوس الذين يشاهدون الآثار الفنية . فالجمال تجربة شخصية ، ووظيفة الفنان أن يبرز الاحساس بالجمال فى أعين الناظرين .

وهذه مثالية حادة تشبه ما يقوله أنصارها من أن الحرارة ليست صفة فى النار ، بل هى التأثير الحادث من النار فى الحواس .

ولعمرى إن هذا المذهب يجعل من الفن شيوعية ، ويرد أحكام الجمال إلى العامة والجمهور ، فينزل بقدره ، ويهبط بمستواه ، ثم يرد التقدير إلى الكم والعدد ، لا إلى الكيف والقيم .

والمذاهب الشخصية هى التى تسود حضارة اليوم . ففى الفلسفة نجد الوجودية ، وفى الأخلاق النفعية ، وفى الفن الاحساس الشخصى . وقد عدل بعضهم عن هذه الذاتية الصارخة ، وجمع بين وجدان المشاهد وموضوع الأثر الفنى . ويقولون فى ذلك إن ما نسميه الجمال هو راحة الانفعال . فنحن عند ما نحكم على شئ بأنه جميل ، إنما نعنى أن بعض النوازع النفسية قد برزت عند مشاهدة هذا الشيء إلى حالة من التوازن أو الانسجام الوجدانى . فاذا حدث هذا الانسجام ارتاحت النفس ، وسلّمت بوجود الجمال فيما تشاهده . وحاصل هذا المذهب أنك تخلع نفسك وإحساسك على العالم الخارجى .

ويقوم هذا المذهب فى الواقع على أساس من علم النفس . فالانسان مركب من دوافع بعضها فطرى وبعضها مكتسب . وهذه الدوافع تكون عادة متنافرة وفى صراع دائم ، ومن الخير تنظيمها وتأليفها ، بحيث يتسنى لكل دافع نفسانى أن ينطلق فى حرية بدون أن يتنازع مع غيره من الدوافع . فاذا حدث التنظيم التام للدوافع أحسسنا بالجمال فى الأشياء .

على أن المذاهب الشخصية لا تستطيع أن تثبت طويلا أمام النقد . ففى الأشياء عناصر موضوعية لا غنى عنها ، ولا يمكن إغفالها بحال من الأحوال . هل تستطيع أن تقرض شعراً غير موزون ؟ إن البيت المكسور ليفسد القصيدة ، واللحن يسئ إلى الكاتب ، والجهل بتشريح الجسم يجعل المثّال عاجزاً .

ويبدو أن الذين يأخذون بالمذاهب الشخصية يخلطون فى تقدير الجمال بين الوجود والمعرفة . إنهم ينكرون وجود الشئ الجميل وتأثيره فى النفس ، ولا يعترفون إلا بانفعالاتهم وعواطفهم ، وتوافق هذه الانفعالات وانسجامها. فان قالوا : نحن لا ننكر وجود الأشياء الجميلة ، قلنا إذن لها فى ذاتها خصائص

تجعلها جميلة . والخلاف بيننا و بينهم فى « معرفة » هذه الخصائص . فالخروج على قواعد الموسيقى يجعل اللحن متنافراً تمجه الاسماع .

•

الجمال إذن تناسب وتوافق فى الأشياء ذاتها . ونحن لانحس الجمال إلا عند ما ندرك هذا التناسب ، ونميزه ، ويكون حاضراً فى الذهن كالمقياس أو الميزان . وهذا هو المذهب الذى أوثره .

فى كل شئ جميل مادة وصورة كما يذهب أرسطو . مادة الشعر المعانى والألفاظ ، وصورته الأوزان . ومادة التصوير الألوان ، وصورته التأليف فى انسجام . ومادة الموسيقى الأصوات والأنغام ، وصورتها الزمان . هذا الجانب الصورى لا غنى عن معرفته والخضوع له ، وهو الذى نسميه مثال أفلاطون. فالترتيب ، والتتابع ، والانتظام ، وحسن التأليف ، وضبط الايقاع ، ولطف التداخل بين الأجزاء ، ووحدة الشئ فى وضوح وانسجام ، هذا كله مصدر الجمال .

والمرجع فيما ذكرنا إلى الاحساس بالزمن وإدراك قيمته . ولا يعنينا أن ندخل فى قضية الزمان أنفسانى هو أم طبيعى ، وإنما الذى يعنينا أن نقرره هو أن إدراك الزمن المنقسم ، والايقاع المنتظم،والتوقيت المؤتلف ، هو السرفى الجمال . فى حفيف أوراق الشجر اهتزازات لا تختلط فى تنافر ، بل تتناسب فى انسجام . فأنت تجد الجمال فى أمواج البحر التى تغمر الشاطىء ثم ترتد عنه ، ثم تعود إليه ، وهكذا . وتجد الجمال فى مشية المرأة لأنها تخطر وكأنها ترقص. والرقص مشية تجرى مع الزمن المنتظم .

وكلما أردنا أن نعبر عن إعجابنا بشئ جميل قلنا : لقد جعلنا نهتز طرباً ، أو نرقص طرباً .

فلاعجب إذن أن يكون مرجع تقدير الجمال إلى الاحساس بالزمان ، وإدراك ما ينطوى عليه من تناسب وانسجام .

فاذا سلمت معى بهذه المقدمات ، كان من العسير بعد ذلك أن تؤمن مع الفلاسفة القائلين بأن « الفن حرية » ؛ إذ كيف يصح أن تجرى الفنون الجميلة طبقاً لأوضاع ونظم ، أكثر الناس التزاماً لها هم الفنانون أنفسهم حين

يبدعون الأشياء الجميلة ، أو النقاد الذين يحكمون على هذه الآثار ، ثم يقال بعد ذلك إن الفن حرية ؟ إن كنتَ تقصد أنها حرية كحرية العصفور السجين فى القفص يتنقل فيه من جانب إلى آخر ، فلك أن تسمى هذه الحركة حرية .

ولك أن تقول إن من يسعى إلى إدراك الجمال ، إنما يسير حرًّا حتى يعثر على هذا النظام البديع ، فيدركه ، سواء أكان من إبداع الطبيعة أم من خلق الانسان ، ثم يجد لذته فى الاستمتاع بهذا النظام وما فيه من جمال .

وهنا نجد الفلاسفة يقولون إن عين الجمال أصدق نافذة نطل منها على سر الكون ومكنونات الطبيعة . ومن أقوال هيجل : « إن آثار الفنون ليست مظاهر بسيطة ، وإنها لتنطوى على الحقيقة أكثر مما تنطوى عليه مظاهر الموجودات فى هذا الكون . ذلك أن العقل يجد مشقة فى النفاذ إلى باطن الطبيعة ولا يشق عليه النفاذ إلى صميم آثار الفنون . »

والسر فى ذلك أن صاحب الذوق الجميل يبصر صور الأشياء ، وعلاقتها بعضها ببعض ، ويميز حقيقتها الباطنة ، ثم يعريها عن علائق المادة التى تشوبها ، ويعبر بعد ذلك عن هذه الصورة المجردة التى أبصرها فى الأشياء الطبيعية والمجتمع الانسانى : فى تمثال ، أو صورة زيتية ، أو قصيدة من الشعر ، أو قصة أدبية .

ومن هنا صح لنا أن نقول إن الفنون الجميلة نوافذ نطل منها على الحقيقة .

أحمد فؤاد الأهوانى